

عبد الوهاب الأفندي | Abdelwahab El-Affendi*

إنكار الإبادة: من نبذ المنكرين إلى معاقبة الشهود

Genocide Denial: From Ostracizing Deniers to Punishing Witnesses

ملخص: ظل منكرو الإبادة، لا سيما المحرقة النازية، خلال فترة طويلة، خاصة في البلدان الغربية، يعاملون بصفتهم منبوذين، ويُحرَمون من الوصول إلى المنابر العامة. ثم تطوّر الأمر إلى إصدار قوانين تعاقبهم، في تحدٍّ لبعض القوانين التي تتيح حرية الرأي وتحميها. وبعيداً عن الإبادة في غزة، بتنا إزاء حقبة مغايرة أصبح فيها أكبر زعماء "الديمقراطيات الكبرى" ينكرون مقتلة هي أول عملية إبادة متلفزة على مدار الساعة. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل امتد إلى نصرته الإبادة ومنكريها بالسلاح والمال والدعاية، وشملت هذه الدعاية الكذب الفاضح، في الوقت نفسه الذي أصبح فيه التنديد بها من "الكبائر"، حتى بالنسبة إلى ضحاياها المباشرين وذويهم. يمثل هذا الانقلاب المفجع، في الأولويات والبوصلة الأخلاقية، حالة غير مسبوقة وغير محتملة، تاركةً الكون معلّقاً على حافة هوة سحيقة.

كلمات مفتاحية: الإبادة، إنكار الإبادة، المحرقة النازية، سرديات التوجس، غزة.

Abstract: For a long time – especially in the West – deniers of genocide, particularly the Nazi Holocaust, were treated as pariahs and barred from public platforms. This later developed into the enactment of statutes to punish them harshly, in spite of laws that permit and protect freedom of expression. Yet since the onset of the genocide in Gaza, we have witnessed an era in which the top leaders of “major democracies” deny the first genocide to be televised live around the clock. What is more, key international actors have gone so far as to support the genocide and its deniers with weapons, money, and propaganda rooted in parroting blatant falsehoods. In contrast, condemning this genocide – even by its direct victims and their families – has become a grave offense. This devastating reversal of priorities and moral compass has created an unprecedented and intolerable condition, perching the world on the edge of a deep abyss.

Keywords: Genocide, Genocide Denial, Nazi Holocaust, Narratives of Insecurity, Gaza.

* أستاذ العلوم السياسية، معهد الدوحة للدراسات العليا.

Professor of Political Science, Doha Institute for Graduate Studies. Email: abdelwahab.elaffendi@dohainstitute.edu.qa

مقدمة

في حزيران/ يونيو 2023، أصدرت محكمة في هامبورغ حكمًا بالسجن مدة 16 شهرًا على مسنة ألمانية تبلغ من العمر 96 عامًا، بسبب تكرار ادعائها أن معسكر أوشفيتز-بيركيناو Auschwitz-Birkenau لم يكن معسكر اعتقال، بل معسكر عمل. ويندرج هذا الحكم ضمن سلسلة إدانات تلقتها هذه السيدة النازية المتشددة وغير النادمة في السنوات الأخيرة⁽¹⁾. ينص القانون الألماني على تجريم إنكار المحرقة النازية (الهولوكوست)، وتسري قوانين مماثلة أيضًا في عدد من الدول الأوروبية وحول العالم. وفي النمسا، أصدرت محكمة في فيينا عام 2006 حكمًا بالسجن مدة ثلاث سنوات على الناشط والمؤرخ البريطاني اليميني البارز ديفيد إيرفينغ David Irving البالغ من العمر 68 عامًا، بسبب تصريحات كان قد أدلى بها في فيينا قبل 17 عامًا (عام 1989)، في خطاب وصف فيه المحرقة النازية بأنها "خرافة"⁽²⁾. وفي نيسان/ أبريل 2019، حكمت محكمة فرنسية على الكاتب آلان سورال بالسجن مدة عام، بسبب إنكاره للمحرقة، بعد نشره صورًا وتعليقات ساخرة على موقع إلكتروني يديره⁽³⁾.

وفي حين تفرض غالبية الدول الأوروبية عقوبات على إنكار المحرقة بدرجات متفاوتة، ثمة جدل حول اعتبار هذه القوانين تقييدًا غير مبرر لحرية التعبير⁽⁴⁾. وفي الواقع، ألغت المحكمة الدستورية الإسبانية عام 2007 بعض مواد قانون العقوبات التي تجرم إنكار المحرقة وتبريرها⁽⁵⁾، بحجة أن التعبير عن مثل هذه الآراء لا يخرس بالضرورة على الإبادة. ولا شك في أنّ التشكيك في جرائم الإبادة الكبرى، مع ثبوت وقائع معاناة جماعية هائلة، يرتبط عادةً بدوافع مشكوك فيها. فهو على الأقل يوحى بأن المتحدث لا يقدّر حياة الضحايا بما يكفي، ويساهم في تقويض حقوق ورثتهم والمدافعين عنهم في الإنصاف ومطالبهم. بل إنه يتهم أولياء الضحايا بالكذب والتلفيق. يوجد هنا أيضًا عنصر إضافي من النزعة الآثمة؛ إذ يشي هذا الموقف بعدم الاكتراث بمعاناة الضحايا وآلامهم أو بفجاعة ذوبهم. ولا يبدو أن المنكر يهتم كثيرًا بمسألة إن كانوا قد تعرضوا لمعاملة على درجة كبيرة من الوحشية، أو إن كانوا قد عاشوا أو ماتوا. وغالبًا ما يكون ذلك مرتبطًا بالشعور بأنهم "استحقوا ذلك"، أو حتى الادعاء أن من يدافع عنهم قد يستحق هو ذاته المصير نفسه أيضًا.

(1) "95-Year-Old 'Nazi Grandma' Convicted Again for Denying Holocaust," *NDTV World*, 26/6/2024, accessed on 19/10/2025, at: <https://acr.ps/1L9BP2w>

(2) "David Irving Jailed for Holocaust Denial," *The Guardian*, 20/2/2006, accessed on 19/10/2025, at: <https://acr.ps/1L9BPIH>

(3) "France's Alain Soral Gets Jail Sentence for Holocaust Denial," *RFI*, 16/4/2019, accessed on 19/10/2025, at: <https://acr.ps/1L9BP6e>

(4) Laurent Pech, "The Law of Holocaust Denial in Europe: Toward a (Qualified) EU-wide Criminal Prohibition," in: Ludovic Hennebel & Thomas Hochmann (eds.), *Genocide Denials and the Law* (Oxford: Oxford University Press, 2011), pp. 185-234.

(5) "The Case of the Holocaust Denial," *Global Freedom of Expression*, Columbia University, 7/11/2007, accessed on 20/10/2025, at: <https://acr.ps/1L9BOTm>

قد يجادل البعض بأن الأحداث المتعلقة بالمحرقة (الهولوكوست)، أو بحوادث مشابهة من القسوة الجماعية، قد اكتنفها قدر من الغموض المتعمد. فقد حرص الجناة على إخفاء جناياتهم خلف حواجز مصممة بعناية، أو دأبوا على حصرها في مناطق نائية، بل كثيرًا ما اجتهدوا في جعل الأدلة تتلاشى في الدخان⁽⁶⁾. وشمل ذلك عمليات التطهير والتصفيات الستالينية (1936-1938) التي شهدت اعتقالات واسعة ومحاكمات صورية لقيادات وأعضاء في الحزب الشيوعي السوفياتي، وبعض الأقليات مثل البولنديين، حيث أرسل المدانون إلى معسكرات اعتقال "القولاق" سيئة الصيت، أو أُعدموا أو تعرضوا للنفي، هذا لمن لم يمت في التعذيب. وقُدّر ضحايا هذه المجازر بقرابة مليون شخص. وهناك المجاعة الأوكرانية (1932-1933)، التي قُدّر ضحاياها بأكثر من أربعة ملايين شخص، وهي المجاعة التي وقعت بسبب محاولة جوزيف ستالين Joseph Stalin فرض نظام المزارع الجماعية في أوكرانيا، "سلة غذاء روسيا"، في مطلع الثلاثينيات. وقد شمل هذا قمع الاحتجاجات على هذه الإجراءات بالقوة، وإجبار المزارعين على تسليم محاصيلهم؛ ما فرض الجوع على الملايين الذين حوصروا في قراهم⁽⁷⁾.

وقد نتجت "المجاعة الصينية الكبرى" (1959-1961) من أسباب مماثلة، حيث ارتبطت بـ "القفزة الكبرى إلى الأمام" التي أعلنها الزعيم ماو تسي تونغ Mao Zedong عام 1958، وشملت تعميم المزارع الجماعية، ومحاربة العصافير، وفرض الاشتغال بإنتاج الحديد على قطاعات واسعة من السكان. وتسبب احتكار الدولة لتوزيع المحاصيل في موت الكثيرين أمام مخازن الغلال الممتلئة بالمحاصيل. وقد قُدّر عدد الضحايا بثلاثين مليونًا على الأقل⁽⁸⁾، وتبع ذلك مجازر الخمر الحمر البشعة في كمبوديا (1975-1979)⁽⁹⁾، حيث جمعت بين تدمير الحياة المدنية، والزراعة الجماعية، ثم الحرب الشرسة على "أعداء الثورة"، فلم تبق ولم تذر.

أما مجازر البوسنة التي وقعت في قلب أوروبا (1992-1995)، فكانت نتاج تنافس عرقي شرس بين الصرب والكروات على إقليم البوسنة والهرسك المتعدد الأعراق، الذي أصبح ثلاثيًا؛ بين الصرب والكروات، وبين كل من الاثنين وسكان البلاد المسلمين ذوي الوزن الديموغرافي الأكبر في الإقليم. وكان هذا هو الصراع الذي روج لمفهوم "التطهير العرقي"، أي إخراج إثنية معينة من وطنها لمصلحة منافسيها. وقد شملت الأساليب القصف المكثف للمناطق السكنية، والقتل، والانتهاكات الجنسية، وتدمير المنازل والممتلكات ودور العبادة، وعمومًا جعل الحياة مستحيلة للأقلية المستهدفة⁽¹⁰⁾.

(6) وهذا يمثل في حد ذاته اعترافًا ضمنيًا بالإثم، اتفاقًا مع الحديث النبوي في تعريف الإثم: "الإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس".

(7) Natalya Naumenko, "The Political Economy of Famine: The Ukrainian Famine of 1933," *The Journal of Economic History*, vol. 81, no. 1 (2021), pp. 156-197.

(8) Vaclav Smil, "China's Great Famine: 40 Years Later," *British Medical Journal*, vol. 319 (1999), pp. 1619-1621.

(9) Maureen S. Hiebert, "Genocide, Revolution, and Starvation under the Khmer Rouge," *Genocide Studies International*, vol. 11, no. 1 (Spring 2017), pp. 68-86.

(10) Eric Markusen & Martin Mennecke, "Genocide in Bosnia and Herzegovina," *Human Rights Review*, vol. 5, no. 4 (2004), pp. 72-85.

وقد سارت مذابح رواندا، التي استمرت نحو مئة يوم (نيسان/ أبريل - تموز/ يوليو 1994)، على المنوال نفسه، إلا أنها مثلت نموذجًا أكثر فداحة لحملة إبادة استهدفت القضاء على التوتسي بوصفهم جماعة. فقد أطلق متشددون من النخبة السياسية والعسكرية الهوتوية حملة منظمة ضد أقلية التوتسي، مستعينين بالقوات الحكومية والميليشيات والإدارة المحلية، وامتد القتل ليشمل الرجال والنساء والأطفال، فضلًا عن هوتو معتدلين عارضوا الإبادة. ولم تكن الزيجات المختلطة بين الهوتو والتوتسي ضمانًا للنجاة، وإن تفاوت أثرها في فرص البقاء بحسب ظروف الضحايا والسياسات المحلية. ونُفذت عمليات القتل على نطاق واسع، باستخدام السواطير والأسلحة النارية وغيرها من الأدوات والأسلحة، واستمرت حتى تمكنت الجبهة الوطنية الرواندية من هزيمة القوات الحكومية والسيطرة على البلاد في تموز/ يوليو 1994⁽¹¹⁾.

ولم يكن مرتكبو هذه الفظائع في العادة يتفاخرون بها يوميًا عبر المنصات الإعلامية المتعددة، بل نجدهم بالعكس، قد تمارسوا خلف حاجز سميكة من الإنكار المستمر، والتشدد بأهداف نبيلة. ولهذا السبب، يستغرق الأمر عادةً وقتًا طويلًا قبل أن تظهر الأدلة، ووقتًا أطول كثيرًا قبل أن تصبح قابلة للتصديق. على سبيل المثال، رفض مكتب الحرب الأمريكي السماح بنشر تقارير بعض الناجين من معسكر أوشفيتز، بحجة أن الجمهور الأمريكي لن يصدق قصصهم⁽¹²⁾.

وكان الاستثناء، بالطبع، المهاجرين الأوروبيين الذين توافدوا منذ أوائل القرن السادس عشر على أراضي السكان الأصليين للقارات التي أطلق عليها المهاجرون غير الشرعيين فيما بعد اسم "أميركا" يجاهرون بسبب أفعالهم، بل ما زالوا يزيّنون لأنفسهم وللناس على أنها بطولات. فقد كان هؤلاء المسلحون، القادمون من إنكلترا وإسبانيا وهولندا وفرنسا وأماكن أخرى في أوروبا، على درجة كبيرة من الوقاحة في الافتخار بفظائعهم ضد السكان الأصليين، حتى إنهم مجّدوا إبادة السكان المحليين، ونهب ممتلكاتهم، ونزع أراضيهم عنوةً، واعتبروا هذه الجرائم انتصارات عظيمة. إضافة إلى ذلك، ظل جانب من هذه الوقائع والشخصيات المرتبطة بها حاضرًا في بعض المناسبات والرموز والسرديات التذكارية اللاحقة، بما في ذلك أشكال من الاحتفاء استمرت قرونًا بعد وقوعها. إلا أن هؤلاء مثّلوا فئة خاصة من الجناة. وحتى هم، استخدموا وسائل خاصة للتعمية، من أبرزها الكتابات والأفلام وغيرها من السرديات التي تصور المقتحمين بأنهم أمم "متحضرة"، كانت ضحية وحشية السكان المحليين، وأنهم هم من أدخل الحضارة في البلاد ومدنها وعمّرها.

بالطبع، كل الجرائم الفظيعة، بما فيها ما سردناه، لها سرديات تبريرية مقنعة لأصحابها في وقتها لمن يقبل بها. فعند الشيوعيين في موسكو وبيجين، وحتى في كمبوديا، هناك عالم جديد وعظيم

(11) ينظر:

Scott Straus, *The Order of Genocide: Race, Power, and War in Rwanda* (Ithaca, NY: Cornell University Press, 2006); Lee Ann Fujii, *Killing Neighbors: Webs of Violence in Rwanda* (Ithaca, NY: Cornell University Press, 2009); Philip Verwimp, "Machetes and Firearms: The Organization of Massacres in Rwanda," *Journal of Peace Research*, vol. 43, no. 1 (January 2006), pp. 5-22.

(12) Samantha Power, *A Problem from Hell: America and the Age of Genocide* (New York: Basic Books, 2013), p. 35.

يُخلق، وعالم شرير ظالم يُقبر، وما هذه المعاناة لطائفة من الناس يعوقون التقدم إلا ثمنًا بسيطًا يجب دفعه لدخول اللجنة الجديدة الموعودة. وفي الخطابين القوميّين الصربي والكرواتي، جرى استدعاء تصورات عن حرمان تاريخي طويل من تقرير المصير، وعن تعرّض الجماعة لقمع متكررٍ على أيدي أعدائها. ومع تفكك يوغوسلافيا، قُدِّمت اللحظة بوصفها فرصة لتحقيق تقرير المصير وتوحيد الوطن وتسوية حسابات تاريخية متراكمة. وفي بعض السرديات القومية الصربية، صُوِّر الوجود الإسلامي، المرتبط تاريخيًا بالحكم العثماني، بوصفه "عقبة تاريخية" ينبغي تجاوزها. واستُدعيت أيضًا سرديات مماثلة عن المظلوميات التاريخية في الخطاب القومي الكرواتي. وقد أسهم توظيف هذه المظلوميات، في الحالتين، في شرعنة سياسات العنف تجاه جماعات جرى تصويرها بوصفها امتدادًا لأعداء تاريخيين⁽¹³⁾.

وتقترب سرديات الهوتو في رواندا من سرديات الصرب حول مخاوف من هيمنة تاريخية من أقلية التوتسي، وسرديات مضخمة حول خطرهم. ولعلها مفارقة أن معظم من يروج لسرديات التوجس هذه، ينتهي به الأمر إلى أن يواجه تحقُّق مخاوفه بسبب أفعاله. هذا ما حدث للألمان بعد النازية، وللهوتو بعد مذابح رواندا، وللصرب بعد مذابح البوسنة، وللخمير الحمر في كمبوديا، كما انهارت الأنظمة الشيوعية في الاتحاد السوفياتي والمنظومة المحيطة به، كما في الصين. وقد كان تحقق النبوءة في رواندا هو الأسرع، لأنها كانت المجزرة الوحيدة التي أُنتِيت خلال أشهر، ولم تدم سنوات كما في الحالات الأخرى.

لكن في معظم الحالات، فشلت محاولات التستر على هذه الجرائم الفظيعة، على الرغم من الجهود الكبيرة التي بُذلت في هذا السبيل، ومحاولات القمع الإضافية والإرهاب، والتبريرات الكاذبة والواهية. حتى في عصور ما قبل بدايات الانفجار الإعلامي في القرن العشرين، فضحت سجلات المعلومات وشهادات المتضررين تلك الممارسات في وقتها أو بعد وقوعها بوقت قصير.

تنشغل هذه الدراسة بالسؤال التالي: ما الذي يحدث عندما يصبح إنكار الإبادة جزءًا من المشهد السياسي والأخلاقي السائد، في الوقت الذي تُرتكب فيه الجريمة علنًا وتُنقل وقائعها بالصوت والصورة، وتتكاثر الشهادات والتقارير حولها؟ في مثل هذه الحالة، يتخذ الإنكار صورة أوسع من التشكيك في الوقائع الذي لا يجدي أمام هذه الشواهد؛ ويصبح الخيار هو تفسيرها، ونزعها من سياقها، والتهوين من شأنها، وينسج الجناة سرديات تبرر أفعالهم، ثم يقلب موضع الاتهام بحيث يصبح الاعتراض على الجريمة نفسه موضع شبهة وتجريم. ومن هذه المفارقة، ينطلق النقاش في حالة غزة، بما تكشفه من انقلاب عميق في العلاقة بين الجريمة والشهادة والذاكرة والضمير الأخلاقي.

(13) سلوبودان ج. ماركويتش، "ذكريات الضحية في صربيا وكرواتيا منذ ثمانينيات القرن العشرين حتى تفكك يوغوسلافيا"، في: كوابيس الإبادة: سرديات التوجس ومنطق الفظائع الجماعية، عبد الوهاب الأفندي (محرر)، ترجمة بدر الدين حامد الهاشمي وعبد الوهاب الأفندي (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2025)، ص 235-274.

لفهم هذا الانقلاب، تنطلق الدراسة من استحضار نماذج سابقة من الإبادة والعنف الجماعي، وما أحاط بها من ستر وتبرير وإنكار، ثم تنتقل إلى خصوصية الحالة الراهنة التي تجري وقائعها أمام جمهور عالمي وعلى مدار الساعة. بعد ذلك، تناقش أشكال الإنكار التي تصدر عن مؤسسات سياسية وثقافية يفترض فيها تاريخياً أن تكون في صف التحذير من الإبادة، ويتوقف عند الأدوات السردية التي تحوّل الضحية إلى تهديد، وتمنح العنف الواقع عليها مظهر الضرورة أو الدفاع المشروع. ومن خلال هذا المسار، تحاول الدراسة بيان كيف يمكن أن تتحول الذاكرة، التي نشأت للتحذير من تكرار الفظائع، في ظروف بعينها، إلى جزء من جهاز تبريرها.

أولاً: إبادة متلفزة

ماذا يحدث، مع ذلك، لو كانت مثل هذه المجازر علنية، تُبث مباشرة على مدار الساعة، بكل تفاصيلها المؤلمة؟ ماذا يمكن أن يسمى الإنكار في هذه الحالة، إذا كان شخص ما يصف كل هذا بأنه "خرافة"، على الرغم من مشاهدته كل هذه الأحداث بأم عينه عبر البث الإعلامي اليومي، وقراءته تقارير متعددة صادرة عن وكالات الأمم المتحدة، ومنظمات حقوق الإنسان، والسلطات الصحية الدولية، وعمال الإغاثة، والناجين، عبر كل وسائل الإعلام؟ وكيف مع كل ذلك دأبت قطاعات واسعة من البشر والمؤسسات، بما فيها عدد كبير من حكومات الدول "الديمقراطية"، في الإنكار، أو على الأقل التجاهل والاستخفاف بهذا العذاب المتلفز، مستندين إلى الأكاذيب وخداع الذات؟ وبما أنه من الصعب التشكيك في سلامة المعنيين العقلية تفسيراً لهذه المواقف، كيف يمكن الثقة بنصبيهم من الحكمة والجدارة الأخلاقية؟

أتحدث بالطبع عن قطاع غزة، ذلك الشريط الضيق من الأرض الساحلية الممتد من الحدود الشمالية لمصر إلى الحدود الجنوبية الشرقية لبقية فلسطين المحتلة. لقد أصبحت غزة واحدة من أشهر ساحات المجازر الوحشية التي لا تتوقف في العالم منذ أن تحوّل حادث محدود في الصراع المستمر بين إسرائيل والمجموعات الفلسطينية المسلحة إلى هجوم شامل بلا قيود على غزة، منذ 7 تشرين الأول/أكتوبر 2023. وتبعت هذا العدوان ترسانة من أشكال الإنكار والمراوغة، بدءاً بتسمية هذا الهجوم المدمر، الأحادي الجانب، بأنه "حرب".

منذ اليوم الأول، وصف مسؤولون إسرائيليون كبار سكان غزة بأنهم "حيوانات بشرية"⁽¹⁴⁾، بينما أعلن وزير الدفاع الإسرائيلي علناً أن غزة لن تحصل على طعام أو ماء أو أدوية أو كهرباء، على الإطلاق. في الوقت نفسه، تدفقت إمدادات غير محدودة من الأسلحة والمعدات والأموال من الولايات المتحدة وألمانيا وبريطانيا وفرنسا وحلفاء آخرين، لدعم واحد من أقوى جيوش العالم لمواجهة مدنيين عزل. لم يشهد التاريخ شيئاً كهذا من قبل: الدول القوية في العالم تقدم الدعم لقتل مدنيين محتجزين تماماً بلا دفاع.

(14) جيري مي بوين، "حتى الحروب تخضع لقواعد"، إسرائيل تواجه اتهامات بارتكاب أفظع جرائم الحرب"، بي بي سي عربي، 2025/6/9، شوهد في 2025/10/20، في: <https://acr.ps/1L9BPLJ>

حاول الجميع "إعادة تفسير" التصريحات الإبادة لقادة إسرائيل بأقصى درجات التسامح، على الرغم من وضوحها ووقاحتها، وصرخوا بصوت واحد أن إسرائيل "تدافع عن نفسها" ولها كل الحق في ذلك⁽¹⁵⁾، هذا في حين يُجرّم من يرتدي الكوفية الفلسطينية، أو يهتف "فلسطين حرة، من النهر إلى البحر"، بدعوى أنه ينادي بالإبادة. إلا أن ما تخبرنا به شاشاتنا لم يكن دفاعاً ضد مهاجمين، بل هو محض هجوم أحادي الجانب على مدنيين عزّل، وتدمير جماعي للمنازل والمستشفيات والمدارس والجامعات وكل بنية تحتية في غزة.

ما لم نره على شاشاتنا هو أن هؤلاء المدنيين العزّل كانوا لاجئين أصلاً، طُردوا من منازلهم على يد الدولة نفسها التي توجه الآن مدافعها الهائلة نحو "مخيمات لجوئهم". لقد ظلوا هناك منذ عام 1948، وتحت حصار خانق منذ عام 2005. والأمر الأكثر إثارة للاهتمام هو أن هجوم 7 تشرين الأول/أكتوبر في غزة، الذي أسفر عن مقتل حوالي 1200 شخص وخطف أكثر من 200 آخرين من الإسرائيليين، وُصف بأنه استئناف للمحرقة النازية وحملة لإبادة اليهود. وكما أوضحنا بتفصيل في دراسة أخرى، وبغض النظر عن كيفية وصفنا للهجوم، فإنه لا يمكن تصنيفه إبادة⁽¹⁶⁾.

بدايةً، تتفق أغلب نظريات أبحاث الإبادة على أن الدول ترتكبها على نحو شبه حصري⁽¹⁷⁾. والأهم من ذلك، أن الجهات غير الحكومية لا تمتلك غالباً القدرة على تنفيذ إبادة ضد جماعة تفوقها عدداً، فضلاً عن دولة تزعم أنها تملك أحد أقوى جيوش العالم، حيث يُعدّ كل البالغين الإسرائيليين جنوداً في الجيش، وخاصةً إذا كانت الفئة المتهمة تفتقد القدرة على تحديد مواقع السكان المستهدفين، وفصلهم، واحتجازهم، لتنفيذ عمليات قتل منهجية.

وإذا كانت هناك أدبيات حول ما وُصف بأنه "الإبادة من جانب المضطهدين" Subaltern Genocides، فإن هذا يشير عادةً إلى ثورات أغلبية مضطهدة أو مستعبدة، كما في ثورة العبيد في هايتي (1781-1803)، وعندها تعلّق الأمر بثورة عارمة من المستعبدين السود ضد الاستعمار الفرنسي، في فترة تطابقت مع الثورة الفرنسية التي أضعفت الدولة مؤقتاً. وقد انتهت هذه الثورة بإنهاء الاستعمار الفرنسي لهايتي وتحقيق استقلالها، بما يعني أنهم أصبحوا هم الدولة. وبالطبع فإن القتال العنيف أدى إلى مجازر فظيعة. وقد وقع مثل هذا في بعض دول أميركا اللاتينية في القرن الثامن عشر، حيث كان سكان البلاد ما يزالون الأغلبية، وكانوا يواجهون معاملة وحشية من المستعمرين⁽¹⁸⁾. في أي حال، لم يكن في إمكان حركة المقاومة الإسلامية "حماس" تنفيذ عمليات قتل منهجية مع العدد القليل

(15) Ramzy Baroud, "Israel's Biblical Wars of 'Self-defence': The Myth of the 'Seven War Fronts'," *Middle East Monitor*, 22/10/2024, accessed on 20/10/2025, at: <https://acr.ps/1L9BPhL>

(16) Abdelwahab El-Affendi, "The Futility of Genocide Studies After Gaza," *Journal of Genocide Research*, vol. 28, no. 1 (March 2026), pp. 18–24.

(17) Marko Milanović, "State Responsibility for Genocide: A Follow-up," *European Journal of International Law*, vol. 18, no. 4 (September 2007), pp. 669–694.

(18) Nicholas A. Robins & Adam Jones, "Introduction," in: Nicholas A. Robins & Adam Jones (eds.), *Genocides by the Oppressed: Subaltern Genocide in Theory and Practice* (Bloomington: Indiana University Press, 2009), pp. 1–10.

من الأفراد الذي أرسلته إلى داخل إسرائيل، والمدة الزمنية القصيرة التي قضوها هناك، لا سيما ضد دولة-حامية مسلحة تسليحًا كثيفًا، مدعومة على نحوٍ غير مشروط من أقوى دول العالم.

في الواقع، كانت إسرائيل مسؤولة عن العدد الكبير من القتلى مسؤولية مزدوجة. أولاً، لأن جيشها الذي يُطلق عليه "الجيش الخارق" فشل في الاستيقاظ من سباته بسرعة كافية، على الرغم من تلقيه معلومات عن الهجوم. ولم يتوقع معظم مهاجمي حماس البقاء على قيد الحياة فترة طويلة بعد بدء هجومهم، فضلاً عن تنفيذ عدة رحلات إلى داخل إسرائيل والعودة مع رهائن. كان لدى الجيش الإسرائيلي القدرة على إحباط الهجوم ومنع مقاتلي حماس من العودة إلى غزة مع رهائن، لكنه لم يستخدم هذه القدرة⁽¹⁹⁾.

ثانياً، اتضح في غضون أيام أن الجزء الأكبر من القتلى الإسرائيليين، بما في ذلك الوفيات في مهرجان موسيقي قريب، كان نتيجة لهجوم مضاد إسرائيلي. فقد استخدمت إسرائيل في هجومها على مقاتلي حماس مروحيات هجومية وأسلحة أخرى أحرقت كل من كان موجوداً في المكان، حتى إنه تعذر التعرف عليهم. وظهرت أدلة إضافية حينما خفّض الجيش الإسرائيلي حصيلة القتلى الإسرائيليين من 1400 إلى 1200، مُعترِفاً بأن 200 منهم كانوا في الواقع مهاجمين فلسطينيين. كان ذلك كشفًا إضافيًا عن استخدام إسرائيل نيرانًا كثيفة؛ وهو أمر لم تكن حماس تمتلك القدرة على فعله⁽²⁰⁾.

على أي حال، فإن مقاطعة محاصرة وفقرية مثل غزة لا يمكنها أن تهدد إسرائيل بالدمار، حتى لو كانت مزودة بالدبابات والقوة الجوية؛ ذلك أن إسرائيل قد هزمت في السابق جيوشاً عربية متعددة، عادةً في غضون أيام، حتى من دون توافر ترسانتها الحالية من الأسلحة الحديثة. إضافة إلى ذلك، وكما أوردنا في المقالة المشار إليها آنفاً، فإن هدف مهاجمي حماس الأول من هجمة 7 تشرين الأول/أكتوبر كان الحصول على رهائن لمقايضتهم بالأسرى الفلسطينيين في سجون الاحتلال. ولهذا السبب، نجد أنهم كانوا أحرص على أرواح الأسرى من السلطات الإسرائيلية، التي لم تكن تتورع عن قصف عشوائي، كان من المؤكد أن يوقع قتلى بينهم. لذا، فإن الفكرة التي يروج لها على نطاق واسع بأن إسرائيل في حاجة إلى الدفاع عن نفسها "ضد محرقة جديدة" من خلال ارتكاب إبادة في غزة، لا يمكن أن تصمد طويلاً لأي تدبر وفحص، بل إنها تثير السخرية.

ثانياً: إنكار من ذكرى المحرقة

ما يثير الدهشة والقلق الشديدين هنا هو أن مراكز إحياء ذكرى المحرقة، مثل المركز الإسرائيلي ياد فاشيم Yad Vashem، كانت في طليعة حملة الإنكار. على سبيل المثال، ردّ داني داين Dani Dayan، رئيس ياد فاشيم، سلبياً على رسالة بعث بها 56 من كبار العلماء المتخصصين في

(19) Donald Bloxham, "The 7 October Atrocities and the Annihilation of Gaza: Causes and Responsibilities," *Journal of Genocide Research*, vol. 28, no. 2 (June 2026), pp. 1–26.

(20) Asa Winstanley, "Army was Ordered to Kill Israelis on 7 October, Defense Minister Confirms," *Electronic Intifada*, 7/2/2025, accessed on 17/2/2026, at: <https://acr.ps/1L9F2Yb>

المحرقة والإبادة، يطلبون فيها من المركز إدانة الخطاب الإبادي الذي يعتمد عليه المجتمع الإسرائيلي وقادته. ووفقاً لأحد الموقعين، فقد سجل "إصدار أكثر من 500 تصريح علني مُهدِّد للفلسطينيين بالإبادة من جانب قادة إسرائيليين، وضباط عسكريين كبار، ومشرعين، وصحافيين، وغيرهم من صناع الرأي العام"⁽²¹⁾. إضافة إلى ذلك، أشار إلى صحفي إسرائيلي ذكر أن الخطاب المؤيد للإبادة لا يمكن تجنبه في إسرائيل، سواء في التلفزيون، أو وسائل التواصل الاجتماعي، أو المقاهي أو المحادثات الخاصة⁽²²⁾.

مع ذلك، كان رد فاشيم هو الادعاء أن مثل هذا الخطاب "هامشي"، مشيراً إلى "عدد لا يُحصى من الأفعال والتصريحات" من إسرائيل التي تدل على رغبتها في التزام "المعايير الأخلاقية الصحيحة"، "ضمن القيود التي تفرضها حماس علينا"⁽²³⁾. بعبارة أخرى، كانت إسرائيل تتوسل إلى حماس لمنحها إذنًا لتكون أخلاقية والتراجع عن حملتها الإبادية. "انظروا ما الذي يجعلوننا نفعله!"، بحسب مقولة نُسبت إلى أحد كبار قادة النظام النازي⁽²⁴⁾.

نحن هنا في منطقة غير مستكشفة، حيث يشير علماء بارزون مثل يورغن هابرماس Jürgen Habermas إلى موقف هيغلي، مفاده أن التزام ألمانيا الأخلاقي يتمثل في الوقوف إلى جانب إسرائيل، بغض النظر عن أي شيء. وبعبارة أخرى، إذا رأت إسرائيل أن الإبادة أمرٌ جيد، فليكن ذلك. وبينما واصلت إسرائيل قتل الأطفال على شاشات التلفاز مباشرة، فإن هذا ما فعلته ألمانيا بالفعل؛ إذ زودتها بالأسلحة والذخائر وكل ما يلزم لخوض حملتها، بما في ذلك اعتقال المتظاهرين. وكان عدد من الأكاديميين والمثقفين والقادة الدينيين ورؤساء الدول والبرلمانات والمؤسسات الإعلامية، إضافة إلى قطاعات كبيرة من الرأي العام، يرون الأمر ذاته. لقد كانت الجرعة اليومية من الإبادة المتلفزة موضع ترحيب، حتى لو استمرت أشهرًا وسنوات⁽²⁵⁾.

يبدو أن الغالبية العظمى من الدول العربية والإسلامية وجيران فلسطين العرب قد أصبحوا جزءًا من هذا الحشد، إمّا مستسلمين لهذه الوحشية التي لا تُحتمل، أو متواطئين معها. والنتيجة هي إبادة وحشية يشارك فيها معظم العالم. في هذه الإبادة تم إسكات المعارضين الشجعان الذين تجرّؤوا على الإشارة إلى "عُري الإمبراطور"؛ فقد تعرضوا للتشهير والملاحقة، وطُردوا من وظائفهم أو مدارسهم

(21) Amos Goldberg, "Yad Vashem Is Shirking Its Duty in the Face of Israeli Genocidal Rhetoric," *Haaretz*, 22/1/2024, accessed on 20/10/2025, at: <https://acr.ps/1L9BP6p>

(22) Zoé Samudzi, "'We Are Fighting Nazis': Genocidal Fashionings of Gaza(Ns) after 7 October," *Journal of Genocide Research* (March 2024), pp. 1–9; "The Silence on Gaza Dramatically Exposes a Blind Spot in our Cultures of Remembrance," *Le Monde*, 7/6/2025, accessed on 20/10/2025, at: <https://acr.ps/1L9BP6p>

(23) Raz Segal & Luigi Daniele, "Gaza as Twilight of Israel Exceptionalism: Holocaust and Genocide Studies from Unprecedented Crisis to Unprecedented Change," *Journal of Genocide Research*, vol. 28, no. 1 (March 2026), pp. 1–10.

(24) Garrath Williams, "Dangerous Victims: On some Political Dangers of Vicarious Claims to Victimhood," *Distinktion: Scandinavian Journal of Social Theory*, vol. 9, no. 2 (2008), pp. 77–95.

(25) Martin Shaw, "Gaza and the Structure of Genocide in Palestine," *The Journal of Imperial and Commonwealth History*, vol. 53, no. 2 (2025), pp. 416–422.

(إذا كانوا من بين العديد من الطلاب المحتجين أصحاب الضمائر الحية). بل إن ارتداء الكوفية الفلسطينية، التي أصبحت رمزاً للمقاومة، بات يُنظر إليه على أنه دليل على معاداة السامية. ووفقاً لأحد الأكاديميين الفرنسيين البارزين، بلغت نسبة الرقابة الذاتية بين الأكاديميين الشباب في الولايات المتحدة 98 في المئة، ولم تكن النسبة أقل كثيراً بين الأكاديميين الأكبر سناً⁽²⁶⁾.

أصبح الإنكار العلني للإبادة طقساً متبعاً. فحينما قال رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو، أمام قاعة مكتظة في الكونغرس الأمريكي، يوم 24 تموز/ يوليو 2024، إن مؤرخاً معيّناً يُعرّف نفسه بأنه خبير في صراعات المدن أخبره بأن سلوك إسرائيل في غزة كان الأكثر ضبطاً للنفس في تاريخ الحروب الحضرية⁽²⁷⁾. قبل قوله هذا بتصفيق حار ووقوف الحضور احتراماً. وقد أخبر أيضاً جمهوره، المصدق لكل ما يقوله، بأن الطلاب الشجعان وأصحاب الضمائر الحية، الذين يحتجون على الإبادة في غزة، تمولهم إيران!

في هذا العالم المقلوب، يُدان أولئك الذين يحتجون على الإبادة ويشوّهون، بينما يصبح أولئك الذين يتهمون بها أبطال اليوم. وكما تشير الملاحظة الثابتة للكاتب اليهودي الفرنسي، ديديه فاسان، فإن هذا العالم المقلوب يستند إلى ترسانة خطابية يمكن تسميتها "خطاب الإنكار". وتشمل عناصره مفهوم "الحاضرية" Presentism؛ أي التجريد الجذري للأحداث الأخيرة من سياقها التاريخي. وفي هذا السياق، يُفترض أن الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي بدأ في 7 تشرين الأول/ أكتوبر، في تجاهل تام للجرائم الفادحة التي ترتكبها إسرائيل ضد الفلسطينيين منذ قرابة ثمانية عقود. بل نشهد التغافل التام عن مخيمات اللاجئين، حيث يُكّس معظم سكان غزة، في دلالة واضحة على أنهم اقتلِعوا من ديارهم لإفساح المجال لـ "إسرائيل"⁽²⁸⁾. وهكذا، يصبح لإسرائيل، وفقاً لهذا المنطق، كل الحق في "الدفاع عن نفسها" ضد هجوم غير مبرر جاء من العدم!

الأداة الثانية في هذه الترسانة الخطابية هي "المبالغة"، سواء من خلال التضخيم، كما في تصوير هجوم 7 تشرين الأول/ أكتوبر على أنه "هولوكوست جديد" شنه جميع الفلسطينيين الذين يوصفون بـ "النازيين"، أو من خلال التوسع في الاستنتاجات، كما في الادعاء بأن إدانة المستوطنات بوصفها "غير قانونية" تكشف عن نية لتدمير دولة إسرائيل. وفي السياق نفسه يندرج اعتبار هتافات الطلاب المحتجين بكلمة "انتفاضة" على أنها في الواقع دعوة لإبادة اليهود. ولكن الأداة الأكثر فاعلية على الإطلاق، هي تصنيف أي انتقاد لإسرائيل على أنه "معاداة للسامية"⁽²⁹⁾.

(26) "Academics in the US Self-censor when Talking about Israel-Palestine: Poll," *The New Arab*, 6/12/2023, accessed on 20/10/2025, at: <https://acr.ps/1L9BP6c>

(27) Anne Flaherty, Luis Martinez & Leah Sarnoff, "Fact-checking Israeli Prime Minister Benjamin Netanyahu's Address to Congress," *ABC News*, 25/7/2024, accessed on 20/10/2025, at: <https://acr.ps/1L9BP6w>

(28) Didier Fassin, "The Rhetoric of Denial: Contribution to an Archive of the Debate about Mass Violence in Gaza," *Journal of Genocide Research*, vol. 28, no. 1 (March 2026), pp. 53-59.

(29) Ibid.

الأداة الثالثة التي تُستعمل في خطاب الإنكار هي "التشويه"، وهو أداة خطابية أخرى تُستخدم للتغطية على الجرائم الواضحة المتمثلة في القتل العشوائي، سواء من خلال المشاهد المباشرة التي توثقها الكاميرات، أو عبر تصريحات المتحدثين باسم الجيش، أو حتى من خلال اعترافات ضباط عسكريين أو استخباراتيين سابقين. وبدلاً من مواجهة هذه الحقائق، يروج المتحدثون الرسميون للدعاية التي تصف "الجيش الأكثر أخلاقية في العالم" بأنه يبذل كل ما في وسعه لتجنب المدنيين الأذى، من خلال إصدار تحذيرات مسبقة، لا تتجاوز الدقائق في أغلب الحالات، وتوجيههم إلى "مناطق آمنة" (والتي تقصف فوراً عند وصولهم إليها)⁽³⁰⁾.

يشمل التشويه أيضاً الإنكار الصريح لوقوع الإبادة في غزة، وذلك عبر التلاعب بالألفاظ، وإلقاء اللوم على الفلسطينيين واتهامهم بأنهم المشكلة الحقيقية والمعتدون، أو عبر اتهام أي شخص يصرخ بكلمة "إبادة!" بأنه في الواقع يعاني "رغبة لا واعية في رؤية إبادة تُرتكب ضد اليهود". هكذا، في الوقت الذي يتم فيه إنكار الإبادة المتلفزة بوقاحة باستخدام خطاب ملتوي، تدان فيه الشعارات مثل "من النهر إلى البحر" باعتبارها تعبيرات عن نيات إبادة⁽³¹⁾.

هذه القراءة المتبصرة لتشريح الأدوات الخطابية للإنكار تُعدّ ضرورية، لفضح مساعي إنكار الإبادة وإخفائها داخل شبكة من الأكاذيب. هناك أوجه تشابه مقلقة بين هذه الاستراتيجيات وتلك المستخدمة في إنكار الهولوكوست. في كلتا الحالتين، يعتقد المنكر، بإخلاص أو تواطؤ، أن الجرائم لم تُرتكب أساساً. وهو في الواقع، ببساطة لا يكتثر للضححايا، بل ينحاز كلياً إلى الجناة، ويولي حماية صورتهم وتبرير أفعالهم اهتماماً أكبر. والأسوأ من ذلك، أنه في أعماقه يستمتع سرّاً بالوحشية التي تُمارَس ضد الضحايا، بل يؤمن بأنهم يستحقونها.

ثالثاً: التمريرات السردية للإبادة

لمسألة الإنكار هذه بُعد آخر، وهو ما أشار إليه الفيلسوف الألماني هابرماس، وثلاثة من زملائه في رسالة مفتوحة مشتركة. وكما هو الحال مع غيرهم من المنكرين، كان اهتمامهم الأساسي منصباً على الجناة، لا الضحايا. كان قلقهم الأول يتعلق بارتفاع معدلات معاداة السامية في ألمانيا، التي قد تتفاقم إذا تم الربط بين إسرائيل والإبادة. أمّا القلق الثاني، المرتبط بالأول، فقد كان قائماً على تفكير رغائبي بأن إسرائيل لن تنحدر إلى هذا المستوى من الانحطاط الإجرامي. عند نشر هذه الرسالة، في 13 تشرين الثاني/نوفمبر 2023، ربما كان هذا الافتراض جائزاً من الناحية النظرية، ولكن فقط لمن أراد تصديقه بحسن نية. كان لهذا الطرح بُعدٌ شبه ديني، يجمع بين التفاؤل والحذر الاستباقي، ويتجلى ذلك في العبارة الأساسية الواردة في الرسالة: "على الرغم من كل القلق بشأن مصير السكان الفلسطينيين، فإن معايير الحكم تنهار تماماً عندما تُنسب نيات الإبادة إلى أفعال إسرائيل"⁽³²⁾.

(30) Ibid.

(31) Ibid.

(32) "Habermas on Israel: A Principle of Solidarity," *Reset Dialogues*, 15/11/2023, accessed on 20/10/2025, at: <https://acr.ps/1L9BPRj>

تعكس هذه الصياغة عنصرًا من تقديس الدولة الإسرائيلية، باعتبارها كيانًا منزَّهاً عن الشر المطلق، وكأنها المسيح، غير قادرة على ارتكاب الخطيئة. لكن هذا الطرح يتجاوز التمني الساذج، خاصة عند الحديث عن دولة بُنيت على اغتصاب الأراضي، والتطهير العرقي، والاضطهاد المستمر للضحايا. وعلى عكس الدول الإبادة الأخرى (مثل ألمانيا ما بعد الحرب العالمية الثانية التي اعترفت بجرائمها وسعت للتكفير عنها)، فإن إسرائيل لم تُبد أي ندم، ولم تتوقف عن ارتكاب الجرائم نفسها من سرقة الأراضي والممتلكات، واضطهاد الضحايا، والانحدار إلى شكلها الخاص من الفاشية.

للبعد الخطابي للإنكار جانب آخر مهم؛ إضافة إلى تبرير الإبادة (ومحاولة التستر عليها أو التقليل من شأنها)، فإن الخطابة تُعتبر جانبًا أساسيًا في عملية الإبادة نفسها. وفي هذا السياق، تؤدي السرديات دورًا محوريًا في التحريض على ارتكاب الإبادة منذ البداية. وما أسمى أنا وزملائي "سرديات التوجس"⁽³³⁾، وما يصنفه أ. ديرك موزس تحت اسم "الأمن الدائم"⁽³⁴⁾، يُعتبر محوريًا لسد الفجوة بين الصراع السياسي العادي والانحدار نحو العنف الوحشي الأحادي الجانب ضد المدنيين.

ينطلق موزس من ملاحظة حول سعي القيادة النازية الألمانية لإبادة اليهود، حتى آخر طفل، باعتبارهم تهديدًا سياسيًا. كان هذا ضروريًا، في نظرها، لتحقيق "الأمن الدائم" لألمانيا، من خلال القضاء على التهديدات الحالية والمستقبلية، وضمان عدم ظهور مثل هذه التهديدات مرة أخرى. وقد ظهرت هذه الموضوعات أيضًا في تعامل المستوطنين الأوروبيين مع الهنود في أميركا، وفي حالات أخرى⁽³⁵⁾. في مقابل نقطة موزس المهمة، يركز منظورنا على مفهوم أوسع وهو "سرديات التوجس"، أي القصص التي تُصوّر فيها مجموعات أو كيانات معينة على أنها تهديدات وجودية. يمكن أن تبدأ هذه التهديدات من "الإرهاب" لتمر إلى التهديدات الثقافية أو المخاطر على الهوية. وفي كل الحالات، يُعتبر مجرد وجود الآخر تهديدًا جسيمًا تجب مواجهته. وتختزع مثل هذه السرديات، التي تخفي الإبادة وتبررها، "تهديدات" (مثل اليهودي، والأسود، والمسلم، والشيوعي، والمهاجر، والفلسطيني ... إلخ)، حيث تصوّر كل فئة من هؤلاء على أنها تهديد وجودي مدمر.

أمّا الفلسطيني، فيُصوّر في الواقع بوصفه عضوًا في مجتمع مُستَلَب ومضطهد، ويُنظر إلى وجوده ومعاناته في حد ذاتهما باعتبارهما تهديدًا. وهذا يؤدي إلى مزيد من الاضطهاد والاستلاب؛ ما يعزز مفارقة شعور التهديد. وعلاوة على ذلك، يُصوّر خطابيًا على أنه دخيل من الخارج، و"متطفل غير متحضر" في وطنه، و"إرهابي دائم"، و"همجي متخلف"، يهدد "الجماعة المتحضرة" للإسرائيلي "المتقدم".

(33) كوابيس الإبادة: سرديات التوجس ومنطق الفظائع الجماعية.

(34) A. Dirk Moses, "Genocide as a Category Mistake: Permanent Security and Mass Violence Against Civilians," in: Frank Jacob & Kim Sebastian Todzi (eds.), *Genocidal Violence: Concepts, Forms, Impact* (Berlin/ Boston: De Gruyter Oldenbourg, 2023), pp. 15–38.

(35) A. Dirk Moses, "Replacing 'Genocide' with 'Permanent Security' via Genealogy," *Global Intellectual History*, vol. 10, no. 4 (2023), pp. 358–365.

تُعدّ غزة مثالاً نموذجياً لكيفية بناء "الآخر" المعادي، اعتماداً على آليات سرديّة تعتمد المبالغة والتشويه والتضليل والافتراءات الوقحة. في هذا السياق، يجري تصوير سكان مدنيين، يعانون الفقر المتعمد والحصار، على أنهم تهديدٌ وجودي لأحد أكثر الكيانات تسليحاً وعسكرةً في العالم. ومن خلال هذا التصوير، يصبح من المبرّر أن تتلقى هذه الجهة "المهدّدة" كميات هائلة من الذخائر والأسلحة المتطورة والدعم الاستخباراتي والمالي لشنّ قصف مكثف على هذا الجيب المحاصر. يوماً بعد يوم، وليلةً بعد ليلة، يُمزّق الأطفال إلى أشلاء، وتُدفن العائلات تحت الأنقاض، وتتحول المستشفيات والمدارس إلى ساحات قتل. ومع ذلك، يجري تأطير هذه الوحشية الواضحة في الخطاب السائد، بوصفها شكلاً من أشكال "الدفاع المتحضر" ضد من يوصفون بـ "البرابرة".

خاتمة: أفلام الرعب وسينما الأكشن

أثارت هذه المشاهد الوحشية، التي تنقلها وسائل الإعلام ووسائط التواصل الاجتماعي إلى كل منزل حول العالم، الغضب في نفوس كثيرين، صغاراً وكباراً، ممن لم ينخدعوا بخطاب الإنكار، ولم تشتر ذمّهم القوى الحاكمة، ولم تُرهّبهم التهديدات والضغط. وهي تذكير بأن الأخلاق والنزاهة يمكنهما الصمود، حتى في مواجهة أهوال الإبادة النووية أو ما يعادلها. لقد أخفقت السرديات المضلّة في حجب الهمجية العارية عن أنظار الجميع.

إلا أنّ وفرة الأدلة والصور لا تقضي، في حد ذاتها، على الإنكار. فقد ميّز ستانلي كوهين بين الإنكار الحرفي، حيث تُنفى الوقائع نفسها، والإنكار التفسيري، حيث يُسلّم بجانب منها ثم يعاد تعريفها ومنحها معنى آخر، وإنكار التبعات، حيث تكون الوقائع معلومة، لكن تُهمّش دلالاتها الأخلاقية والسياسية وما تستوجبه من مسؤولية⁽³⁶⁾. ومن الصعب العثور على مثال أوضح من الحالة التي ناقشناها على تضافر هذه المستويات معاً: إنكار لما يقع، ثم إعادة تسمية ما يتعذر إنكاره، وصولاً إلى التسليم بما حدث مع الإصرار على أنه كان ضرورياً، أو مشروعاً، أو مفروضاً على الفاعل فرضاً.

وهذا يفسر أيضاً عدم الاكتفاء بالصورة وحدها؛ فمشاهدة المعاناة لا تجعل المشاهد، بحكم الضرورة، متضامناً مع من يعاني؛ ذلك لأن المسافة الأخلاقية بين المشاهد والضحية تتشكّل من خلال اللغة والصورة والسياق الذي تُعرض فيه الأحداث⁽³⁷⁾. وقد تستدعي الصورة نفسها التعاطف عند مشاهد، في حين تصبح عند آخر دليلاً على خطر الضحية أو ضرورة القضاء عليها، إذا سبقتها سرديّة نجحت في تحويل تلك الضحية إلى "تهديد". وهنا تظهر أهمية ما أسميناه سرديات التوجس، فهي لا تحجب الصورة دائماً، وإنما قد تعيد تعليم الناس كيف يرونها.

لهذا، فإن الإبادة المتلفزة تحمّل مفارقة أعمق مما يبدو أول وهلة. فالجناة في الأزمنة السابقة احتاجوا إلى إخفاء المقابر والمعسكرات والوثائق وإسكات الناجين. أمّا في الحالة التي تناولتها هذه الدراسة،

(36) Stanley Cohen, *States of Denial: Knowing about Atrocities and Suffering* (Cambridge: Polity Press, 2001), pp. 7–9.

(37) Lilie Chouliaraki, *The Spectatorship of Suffering* (London: SAGE Publications, 2006).

فقد أصبح في الإمكان مشاهدة جانب كبير من المأساة يوميًا، ثم إخضاع ما يُشاهد لعملية تأويل متواصلة تفرغه من معناه. وربما كان هذا أخطر وجوه الإنكار المعاصر: أن يعرف المرء، ويرى، ويسمع، ثم يجد داخل السردية السائدة ما يعفيه من الاستجابة لما عرفه ورآه وسمعه.

وليست هذه المعضلة خاصة بحالة واحدة. فبعد مجزرة سربرنيتسا في البوسنة والهرسك عام 1995، التي قُتل فيها أكثر من ثمانية آلاف من الرجال والفتيان المسلمين البوشناق على أيدي قوات صرب البوسنة، لم تؤدِّ الأحكام القضائية، ولا المقابر الجماعية، ولا شهادات الناجين، إلى إنهاء خطاب الإنكار. بل بلغ هذا الإنكار في بعض الأوساط حدَّ تمجيد بعض مرتكبي الجريمة، وامتد هذا التمجيد إلى الفضاء العام والثقافة الشعبية⁽³⁸⁾. وهذه حالة جديرة بالتأمل، لأنها تذكرنا بأن الإنكار لا يموت بالضرورة حين تصبح الحقيقة أوضح؛ فقد ينتقل إلى طور آخر يصبح فيه الاعتراف الضمني بالفعل متعايشًا مع تبريره، أو حتى الاحتفاء به.

بالطبع، هناك حدود لما يمكن أن تحرفه السرديات أو تخفيه أو تسيء تمثيله. وتبدو هذه الحدود أشد ظهورًا، عندما تنفذ الجريمة أمام الناظرين بصورة فاجعة ومؤلمة على مدار الساعة، وأمام أنظار العالم بأسره؛ ما يجعل خطاب الإنكار هشًا وضعيفًا جدًّا، بحيث لا يمكنه دعم السردية البديلة لبراءة غير مرئية وإنسانية غير موجودة. من اللافت هنا كيف أن الشر يولّد نقيضه: الفضيلة، والنزاهة، والشجاعة، عند الشباب الذين يتفجرون غضبًا في شوارع مدن البلدان الغربية.

ومن هنا تعود استعارة السينما؛ فالأفلام وأشكال السرد الأخرى هي نماذج مثيرة للاهتمام لسرديات متماسكة وإيحائية. وفي معظم الحالات، تُبنى على تباينات متعارضة بين الخير والشر، بدرجات متفاوتة. في كل حبكة، هناك عادةً أبطال وأشرار. ومع تطوّر الأحداث، يُظهر الأشرار طبيعتهم البغيضة، متبارين في انتهاك المحارم، والتفنن في ارتكاب كل كبيرة، والانغماس في كل مفسدة وانحطاط والتلذذ بالفظائع. وكلما تبادوا في تبرئهم من كل خلق، وزاد عذاب الأبرياء ومعاناتهم، ازداد غضب الجمهور وتعطّشه إلى انقلاب الموازين، بحيث يُنقذ الأبرياء، ويُتقم لما تعرضوا له، ويظهر البطل منتصرًا، ليقهر الشر ويعيد العدالة. وكلما كان الشرير أكثر وحشية وقسوة وانفلاتًا، وجب أن يكون المشهد الختامي أكثر إثارة ودرامية.

وإذ نقرب من نهاية فيلم "الأكشن" هذا، يرى الجميع أن الأشرار قد اقترفوا من الإجرام والخسة والردالة والهمجية ما يصعب على كُتاب السيناريو مجاراته وتخيل شرٍ أكبر منه. لقد عانى الأبرياء كثيرًا إلى درجة أنهم لا يكادون يستطيعون التحمّل، وقد لا ينجو منهم إلا قليلون حتى يصلوا إلى النهاية المناسبة في مثل هذا الموقف. غير أن الواقع، خلافًا لأفلام الأكشن، لا يضمن ظهور البطل في اللحظة المناسبة، ولا يعلِّد المتفرجين بنهاية تعيد إلى الكون توازنه. وإذ نصل إلى نهاية هذا العرض من دون أفق لمثل هذا البطل، ينتقل السؤال من قدرة الجمهور على رؤية ما يحدث إلى استعداده لتحمل مسؤولية ما رآه؛ فقد تكون الكارثة الأخلاقية الكبرى أن يشاهد العالم الجريمة كاملةً، ثم يواصل حياته

(38) Olivera Simic, "'Celebrating' Srebrenica Genocide: Impunity and Indoctrination as Contributing Factors to the Glorification of Mass Atrocities," *Journal of Genocide Research*, vol. 27, no. 3 (September 2025), pp. 495–513.

كأن المشهد لا يعنيه، أو أن يعاقب من يصرخ محذراً منها، في الوقت الذي يمنح فيه من يبررها المنابر والسلطة والاحترام. وعندئذ قد ينفجر المتفرجون من الإحباط، ويدمرون صالة العرض بمن فيها، غير تاركين حجراً على حجر.

كان هدف هذه الدراسة مسألة هذا الانقلاب: كيف انتقل إنكار الإبادة، في الحالة التي ناقشناها، من موقف يُدان أصحابه ويُطردون من المجال العام إلى خطاب يحظى بحماية مؤسسات ودول، بينما يتعرض شهود الجريمة ومعارضوها للتشهير والعقاب؟ وتبقى وراء هذا السؤال أسئلة أخرى تحتاج إلى بحوث مستقبلية أوسع: ما الذي يميز إنكار جريمة ماضية من إنكار جريمة تقع أمام المشاهدين؟ وما دور مؤسسات الذاكرة والإعلام والجامعات والقانون في منح بعض الشهادات سلطة أخلاقية ونزعها عن أخرى؟ ومتى تتحول كثافة الصور من أداة لكشف الفظائع إلى وسيلة للاعتياد عليها؟ ثم، وربما كان هذا هو السؤال الأهم: ما الشروط التي تجعل الشهادة فعلاً أخلاقياً وسياسياً قادراً على وقف الجريمة، عوض أن تصبح سجلاً مرئياً لها فقط بعد فوات الأوان؟

تنويه وتقدير

جزيل الشكر للزميلة جيهان المباركي على توليها ترجمة بعض أجزاء النص من الإنكليزية إلى العربية، وللزميلة نصرة الطوقي على التنسيق النهائي للمراجع. كذلك جزيل الشكر لهيئة تحرير دورية عمران لما بذلوه من جهد في معالجة النص وتقديم مقترحات مهمة لتعديله حتى بلغ صورته الحالية.

References

المراجع

العربية

كواييس الإبادة: سرديات التوجس ومنطق الفظائع الجماعية. عبد الوهاب الأفندي (محرر). ترجمة بدر الدين حامد الهاشمي وعبد الوهاب الأفندي. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2025.

الأجنبية

Bloxham, Donald. "The 7 October Atrocities and the Annihilation of Gaza: Causes and Responsibilities." *Journal of Genocide Research*. vol. 28, no. 2 (June 2026).

Chouliaraki, Lilie. *The Spectatorship of Suffering*. London: SAGE Publications, 2006.

Cohen, Stanley. *States of Denial: Knowing about Atrocities and Suffering*. Cambridge: Polity Press, 2001.

El-Affendi, Abdelwahab. "The Futility of Genocide Studies After Gaza." *Journal of Genocide Research*. vol. 28, no. 1 (March 2026).

Fassin, Didier. "The Rhetoric of Denial: Contribution to an Archive of the Debate about Mass Violence in Gaza." *Journal of Genocide Research*. vol. 28, no. 1 (March 2026).

Fujii, Lee Ann. *Killing Neighbors: Webs of Violence in Rwanda*. Ithaca, NY: Cornell University Press, 2009.

Hennebel, Ludovic & Thomas Hochmann (eds.). *Genocide Denials and the Law*. Oxford: Oxford University Press, 2011.

Hiebert, Maureen S. "Genocide, Revolution, and Starvation under the Khmer Rouge." *Genocide Studies International*. vol. 11, no. 1 (Spring 2017).

Jacob, Frank & Kim Sebastian Todzi (eds.). *Genocidal Violence: Concepts, Forms, Impact*. Berlin/ Boston: De Gruyter Oldenbourg, 2023.

Markusen, Eric & Martin Mennecke. "Genocide in Bosnia and Herzegovina." *Human Rights Review*. vol. 5, no. 4 (2004).

Milanović, Marko. "State Responsibility for Genocide: A Follow-up." *European Journal of International Law*. vol. 18, no. 4 (September 2007).

Moses, A. Dirk. "Replacing 'Genocide' with 'Permanent Security' via Genealogy." *Global Intellectual History*. vol. 10, no. 4 (2023).

Naumenko, Natalya. "The Political Economy of Famine: The Ukrainian Famine of 1933." *The Journal of Economic History*. vol. 81, no. 1 (2021).

Power, Samantha. *A Problem from Hell: America and the Age of Genocide*. New York: Basic Books, 2013.

Robins, Nicholas A. & Adam Jones (eds.). *Genocides by the Oppressed: Subaltern Genocide in Theory and Practice*. Bloomington: Indiana University Press, 2009.

Samudzi, Zoé. "'We Are Fighting Nazis': Genocidal Fashionings of Gaza(Ns) after 7 October." *Journal of Genocide Research*. vol. 28, no. 1 (March 2026).

Segal, Raz & Luigi Daniele. "Gaza as Twilight of Israel Exceptionalism: Holocaust and Genocide Studies from Unprecedented Crisis to Unprecedented Change." *Journal of Genocide Research*. vol. 28, no. 1 (March 2026).

Shaw, Martin. "Gaza and the Structure of Genocide in Palestine." *The Journal of Imperial and Commonwealth History*. vol. 53, no. 2 (2025).

Simic, Olivera. "'Celebrating' Srebrenica Genocide: Impunity and Indoctrination as Contributing Factors to the Glorification of Mass Atrocities." *Journal of Genocide Research*. vol. 27, no. 3 (September 2025).

Smil, Vaclav. "China's Great Famine: 40 Years later." *British Medical Journal*. vol. 319 (1999).

Straus, Scott. *The Order of Genocide: Race, Power, and War in Rwanda*. Ithaca, NY: Cornell University Press, 2006.

Verwimp, Philip. "Machetes and Firearms: The Organization of Massacres in Rwanda." *Journal of Peace Research*. vol. 43, no. 1 (January 2006).

Williams, Garrath. "Dangerous Victims: On some Political Dangers of Vicarious Claims to Victimhood." *Distinktion: Scandinavian Journal of Social Theory*. vol. 9, no. 2 (2008).